المنهج النبوي في تحقيق أمن الأمّة الخارجي والداخلي

الدكتور صالح عسكر
جامعة باتنة

إن الدارس للسيرة النبوية الشريفة يجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استطاع أن يصنع منظومة أمنية يحرسها كل فرد من أفراد الأمة، وتقوم على تحصينها جملة من التشريعات والأحكام. وقد عملت هذه المنظومة على حماية كيان الأمة من العدو الخارجي من جهة، وعلى رعاية حقوق الأفراد والجماعات الصغيرة من جهة أخرى، وفق نظام يكفل حماية الدماء والأموال والأعراض. ولقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقود أمة المؤمنين إلى تحقيق مستوى معين من الأمن وفق مقتضيات كل مرحلة، وتسعى هذه الورقة لاستجلاء المعالم الكبرى للمنهج الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم في المحافظة على أمة الإسلام وكيفية الاستفادة منه في الواقع المعاصر لأن النبي صلى الله وسلم رسول بعث ليعلّم الناس أمور دينهم وهو قائم مقام القدوة في كل شأن من شؤونه عليه الصلاة والسلام.

أولا: المنهج النبوي في الحفاظ على أمن الأمة من العدو الخارجي:

والمقصود بالعدو الخارجي الذين يحاربون المسلمين كأمة كالذي وقع

للنبي صلى الله علي وسلم وأصحابه في المواجهات الكبرى مع ممثلي الشرك (قريش بالدرجة الأولى ومن ساندها من الأحزاب)، وممثلي اليهودية (بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريضة وأهل خيبر)، ومع ممثلي المسيحية (كالروم يوم مؤته).

ومن هذا المنطلق، فإننا لن نستطيع أن نتحدث عن عدو خارجي بصفة صحيحة إلا بعد هجرة الرسول صلى الله عله وسلم إلى المدينة وقيام دولة الإسلام وتميز المسلمين ككيان عن سائر الكيانات التي كانت ترفع رايات الشرك وتحمل موضوعه وعنوانه، غير أن ما سبق الهجرة يحمل أيضا بعض الأحداث التي لها بعد دلالي كبير في هذا المعنى.

مرحلة ما قبل الهجرة: لقد دامت المرحلة المكية التي ابتدأت منذ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهت بهجرته نحوا من ثلاثة عشرة سنة، واجتمع حوله فيها جمع من أفاضل الناس منهم العشرة المبشرون بالجنة: الصديق أبو بكر بن أبي قحافة، والفاروق عمر بن الخطاب، وذو النورين عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وكان منهم زوج النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي.

(وكان منهم". . أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وامراته أم سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظغون الجمحي، وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الأرت بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن العاص الأموي، وامراته فاطمة بنت المجلل أخوه لخطاب بن الحارث، وامرأته فكيهة بنت يسار، وأخوه معمر بن الحارث، والمطلب بن أزهر الزهري، وامرأته رملة بنت أبي عوف،

ونعيم بن عبد الله بن النحام العدوي، وهؤلاء كلهم قرشيون من بطون وأفخاذ شتى من قريش.

ومن السابقين الأولين إلى الإسلام من غير قريش: عبد الله بن مسعود الهذلي، ومسعود بن ربيعة القاري، وعبد الله بن جحش الأسدي وأخوه أبو أحمد بن جحش، وبلال بن رباح الحبشي، وصهيب بن سنان الرومي، وعمار بن ياسر العنسي، وأبوه ياسر وأمه سمية، وعامر بن فهيرة ".

ولقد بنى النبي صلى الله عليه وسلم من هؤلاء نواة الأمة التي ستزلزل عروش الظلم والبغي، ولكنه في فترة السنوات الثلاث هذه اتبع أسلوب السرية في دعوته، ولقد جنّب هذا الأسلوب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، مواجهة مبكرة مع جنود اللات والعزى ومناة الذين لم يكونوا ليرضوا بغير الذي ألفوه وعرفوه وكانوا مستعدين لقتل كل من خرج عنه.

نعم لقد سمعت قريش بخبر الدعوة الفتية وبلغ صداها إلى آذان أهلها، ولكنها بسبب الأسلوب الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لتدرك كنهها وأبعادها الحقيقية فتسارع إلى مواجهتها وحملها محمل الجد.

ثم إنه عليه الصلاة والسلام جهر بالدعوة بأمر من الله عز وجل-كما هو مشهور- ولقد أدى هذا الجهر بالدعوة إلى حدوث أمرين:

- **أحدهما:** بلوغ رسالة الإسلام إلى جميع الناس وقيام الحجة عليهم بها، وذلك كان هو المقصود من الجهر بالدعوة، إذ كان على كل واحد أن يحسم أمره في مواجهة الدعوة الجديدة بأن يستجيب لها أو يخالفها.

- **والثاني:** دخول رسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين في مواجهة مباشرة مع المشركين، ولم يكن هذا أمرا مقصودا من الجهر بالدعوة ولكنه أثر من آثاره، ولذلك لم يكن على كل فرد ممن أسلموا أن يجهر بكونه قد اعتنق الإسلام خاصة إن كان

من الضعفاء مع بعض الاستثناءات التي كان المقصود منها إعلان الدعوة كالذي فعله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما أسمع قريشا القرآن وتلاه عليهم في المسجد الحرام فضربوه بسبب ذلك. ومن شواهد ذلك أن بعض من أسلموا ظلوا يخفون إسلامهم إلى فتح مكة، وهو الذي جاء في قوله تعالى:﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ الفتح: ١

ومن الجهر بالدعوة أصبح النبي صلى الله عليه وسلم-بالدرجة الأولى- ثم من اشتهر إسلامه من أصحابه رضوان الله عليهم عرضة للأذى والبطش والفتك والتعذيب الذي سلّطه عليهم المشركون بغرض تحقيق هدفين: **أحدهما:** الحد من انتشار الدعوة الجديدة عبر التمثيل بمن آمن بها واتبعها لتخويف من يفكر في اعتناقها، والثاني محاولة رد من آمن بها واتبعها، وكان الأسلوب الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة يحد إلى درجة ما من شدة هذا الأذى، ولقد كانت درجة الحماية تتحقق للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بسبب جملة من العوامل:

- ففريق من المسلمين حماه الله سبحانه بما له من القوة والمنعة في العشيرة وكان من ضمن هؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان نسبه الهاشمي وقوة قومه مانعة من أن يصل إليه المشركون بأذى، ولقد حاولت قريش أن تقطع هذا السند عنه عليه الصلاة والسلام فطلبوا من عمه أن يكفه عنهم وعرضوا عليه حتى أن يقايضوه بأي ولد من أولادهم يتخذه أبو طالب ابنا ويعطيهم محمدا صلى الله عليه وسلم ليقتلوه، ووصل بهم الأمر إلى أن قاطعوهم ثلاث سنوات أكل فيها بنو هاشم أوراق الشجر، ولكنهم أبوا- وأغلبهم يومئذ مشركون- أن يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ممّن ضمن هؤلاء العشرة المبشرون بالجنة المذكورون سابقا، وبعض هؤلاء الذين كانوا أهل

نسب وشرف تعرضوا لبعض الأذى من عشائرهم وأهلهم مثل مصعب بن عمير الذي حبسته أمه، ولكنه إجمالا لم يكن ما تعرضوا له من الأذى بمستوى الأذى والتنكيل الذي تعرض له الضعفاء كبلال وآل ياسر.

- وفريق آخر ظل مستترا بإسلامه مستخفا به، وأغلب هؤلاء من الضعفاء والعبيد الذين لم يكن لهم عاصم يعصمهم من أذى المشركين، ومنهم من ظل يخفي إسلامه إلى فتح مكة.

- وفريق آخر هاجروا بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة التي كان بها ملك لا يظلم عنده أحد، مما يجعل الضعفاء عنده آمنين حتى وهو على غير ملة الإسلام، ولقد سعت قريش إلى ردهم، وأرسلت في ذلك عمرو بن العاص برشوة في ثوب هدية إلى النجاشي الذي كان صديقا له، ولكن خبر النبي صلى الله عليه وسلم عن عدل النجاشي صدق، فأبى أن يردهم إلى قريش لما لم يثبت عنده أنهم اقترفوا ذنبا يستحقون بسببه أن يردوا إليهم.

- وفريق أخذهم المشركون فحبسوهم وعذبوهم ونكلوا بهم وقتلوا من قتلوا منهم والنبي صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالصبر، كما جاء في حديث خباب بن الأرت الذي كان أحد المعذبين في الله وكانوا يحرقون جسده بالنار، قال: "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متوسد بردا في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ [يقصدون أن يدعو الله لينصرهم ويهلك المشركين]، قال: فقعد محمر الوجه فقال: إن كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ويحفر له في الأرض فيوضع فيها فيؤتى بالميشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ما يرده ذلك عن دينه، فوالله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون".

ولم يأذن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ولغيرهم برد عدوان المشركين، بل في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الحج: ٣٩، دليل على أن القتال لم يكن مأذونا فيه إلى أن نزلت الآية، وكان في هذا رغم ما يحمل من أذى لفئة خاصة من المسلمين-حماية لسائر المسلمين بعدم استثثار المشركين عليهم وليس لهم كيان يحميهم ولا أرض تأويهم، ونجد تصويرا لهذا في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الأنفال: ٢٦.

مرحلة ما بعد الهجرة: لقد ابتدأت هذه المرحلة بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بعد ثلاث عشرة سنة قضاها بمكة وانتهت بوفاته عليه الصلاة والسلام، واجتمع حوله فيها الأوس والخزرج الذين بايعوه على النصرة والحماية ومن انظم إليهم من المهاجرين من خارج يثرب، والذي يميز هذه المرحلة هو نشوء كيان إسلامي كان رسول الله عليه وسلم لا يمثل فيه النبي المعلم فقط، ولكن كان يمثل الإمام والقاضي.

وأهم خاصية تختص بها هذه المرحلة فيما يتعلق بسياق موضوعنا هذا، هو تشريع الجهاد فيها بعد نحو من عام من هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، لتحدث أول مواجهة حقيقية بين المسلمين وقريش أم قرى الشرك في السنة الثانية، وإن النظر في دلالات ذلك يكشف أمرين:

- **أحدهما:** أن الجهاد الشرعي لابد أن ينعقد خلف إمام مبايع بيعة جامعة ورافعة لكل خلاف ونزاع، وواجب الطاعة بأمر من الله: +يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"[النساء: 59]، وأمر من رسوله صلى الله عليه وسلم: (من أطاع أميري فقد أطاعني ومن أطاعني

فقد أطاع الله، ومن عصى أميري فقد عصاني ومن عصاني فقد عصى الله)، وذلك هو الرباط المانع من وقوع الوهن في الأمة وظهور الاختلاف والنزاع فيها في اللحظات الحاسمة، لأن أمره فاصل في المسألة، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يملك سلطة مدنية في حساب الرعية، وعندما استنفر الناس في غزوة تبوك استنفارا عاما تخلف عنه المنافقون وأهل الأعذار، ساءلهم عن تخلفهم- عندما رجع-، ورغم أنه صلى الله عليه وسلم قبل أعذار المنافقين رحمة وعفوا، فقد كان يملك معاقبتهم ونزل عليه قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ التوبة: ٤٣.

- والثاني: أنه لابد لانعقاد الجهاد من وجود قاعدة خلفية تسند المؤمنين وتحميهم كالتي وفرتها المدينة المنورة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولم يكن مأذونا لهم بالجهاد قبل ذلك لقدرة المشركين عليهم بسبب إقامتهم وعيشهم بين أظهرهم، ولقد استأذنه بعض من بايعه عليه الصلاة والسلام بيعة العقبة الثانية في قتال المشركين فلم يأذن له، جاء في سيرة ابن هشام: "فقال: له العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم قال فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها حتى أصبحنا".

وقد كان لشريعة الجهاد في سبيل الله دور محوري في تحقيق الأمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من المؤمنين، غير أنه من الضروري أن ننظر إلى هذه الفريضة نظرة فيها شيء من العمق، وذلك أن سورة من سور القرآن الكريم لا تكاد تخلو من ذكر الجهاد، وهو لم يزل يغيظ الكفار إلى يوم القيامة، ولذلك نشروا أن الإسلام قد انتشر بحد السيف، وأن المسلمين

قوم متعطشون للدماء... فما موقع هذه الفريضة في القرآن الكريم وفي التطبيق العملي لآياته ممثلا في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

للإجابة على ذلك يجب أن ندرك ما يأتي:

1- لقد نصّ القرآن الكريم نفسه على أن مقصد الإعداد للجهاد هو إرهاب الكفار وتخويفهم من الاعتداء على المسلمين حتى لا تقع المواجهة ابتداء فيكون في ذلك صون لدماء المسلمين والمشركين جميعا، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ الأنفال: ٦٠، ولقد نصت الآية نصا صريحا على أن مقصد إعداد القوة ورباط الخيل إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين "ترهبون به عدو الله وعدوكم" وليس "تقتلون به عدو الله وعدوكم"، وبعيدا عن المعنى والبعد الذي أعطي اليوم للفظ "ترهبون"، فإنه في الآية يحمل مصلحة للمؤمنين وهي عدم جرأة أعدائهم عليهم فلا يقع القتال أصلا، وذلك يحقق بالتبع مصلحة أخرى وهي صون دماء الكفار أيضا كما أن هذا الإعداد يلقي بالرعب أيضا في نفوس قوم لم تكن عداوتهم للمسلمين بادية أو ظاهرة "وآخرين من دونهم لا تعلمونهم يعلمهم الله"، ولذلك فإنه في فترات ضعف المسلمين ونكوصهم عن هذا الإعداد تظهر لهم عداوات وأطماع قوم لم يكونوا يتوقعون ذلك منهم.

2- ولما أمر القرآن بهذا الإعداد والاستعداد، أمر بعده بطلب السلم وقبوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الأنفال: ٦١، غير أن هذا الجنوح إلى السلم لا يغني عن الإعداد، فالإعداد والاستعداد قائم أولا قبل السلم ومصاحب له، ثم إن هذا الجنوح

للسلم يجب أن يقع عن قوة وعزة واقتدار: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ محمد: ٣٥.

3- والمسلمون ملزمون بأمر من الله بالحفاظ على معاهدات السلام التي يبرمونها كما هم محاسبون على سائر العهود، ولا يجوز لهم نقضها ولو أحسوا بخيانة من الطرف الثاني إلا أن يعلموا عدوهم بأنها أصبحت غير سارية، كما قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ الأنفال: ٥٨، قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: "وإما تخافن من قوم خيانة " قال المفسرون الخوف هنا بمعنى العلم، والمعنى: إن علمت من قوم عاهدتهم خيانة، وهي نقض عهد... "فانبذ إليهم على سواء"... فألق إليهم نقضك العهد لتكون وإياهم في العلم بالنقض سواء، هذا قول الأكثرين، واختاره الفراء، وابن قتيبة، وأبو عبيدة".

4- وما ذكر آنفا من حفظ أنفس الكفار- وإن بدا مستغربا- هو مقصد من المقاصد الشرعية كما قرر ذلك علماء المقاصد، يدلّ على ذلك أن الكافر متى كان ذمياً أو معاهدا أو مستأمنا كان معصوم الدم والمال إلا أن يجاوز حدا من حدود الله، وأن الأصل في المحارب عصمة النفس لو كان يقدر عليه من غير قتال ولكن لا مناص من ذلك، وقد ذكر علماء المقاصد أن مصالح الدنيا جميعها معارضة بمفاسد، وأن العبرة في الحكم برجحان المصلحة أو المفسدة، وصورة ذلك في الجهاد اشتماله على مفسدة إزهاق الأنفس من جهة، واشتماله على مصلحة حفظ الدين من جهة أخرى، بل وحفظ الأنفس والأموال والأعراض أيضا، لذلك كان مشروعا لرجحان المصلحة فيه وكان فيه من المفاسد في حكم المعدوم، ومتى قدر على دفع ما يصاحبه من مفاسد بترهيب العدو دون إزهاق أنفس كان ذلك خيرا وأفضل،

ولعل ذلك يفتح نافذة لهم أخرى لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالرعب من مسيرة شهر)، ولقوله صلى الله عليه وسلم حين أراد أن يسير إلى مكة فاتحا: (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها من بلادها).

هذا عن المقاصد الكبرى لشريعة الجهاد في الإسلام، وأما تطبيقاتها في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإننا نلاحظ أنها اتخذت منحى تدريجيا وتصاعديا عبر مراحل ثلاثة:

المرحلة الأولى: والتي أعقبت هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مباشرة وامتدت إلى ما بعد غزوة الأحزاب (الخندق) في السنة الخامسة للهجرة، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم فيها بتأسيس حمى وشوكة لهيكل الإسلام الفتي ممثلا في دولة المدينة وبناء أسوار من الرهبة في نفوس المتربصين بالمسلمين من المشركين-وأولهم قريش- ثم من اليهود المقيمين حول المدينة.

- ورغم أن هذه المرحلة قد شهدت مواجهتين حقيقيتين (غزوتا بدر وأحد) وحصارين لبني قينقاع ولبني النضير من اليهود، فقد شهدت عددا يفوق ذلك من السرايا التي باستقرائها يتبين أن الغرض منها كان إظهار العزم والاستعداد الدائم للمواجهة لئلا يحس الأعداء ضعفا من المسلمين فيتجرؤوا عليهم:

- ففي أول غزوة غزاها، خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الأبواء يريد قريشا وبني ضمرة، فوادع بنو ضمرة، وكان عليهم مخشي بن عمرو الضمري.

- وبعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين أو ثمانين رجلا من المهاجرين، فسار فبلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعا من قريش، ولم يقع بينهم قتال.

- وبعث: "... حمزة بن عبد المطلب

بن هاشم، إلى سيف البحر، من ناحية العيص في ثلاثين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاث مئة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعا للفريقين جميعا، فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال ".

- ثم سار صلى الله عليه وسلم يريد قريشا حتى بلغ بواط، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا.

- ثم غزا قريشا، فاستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد... قال ابن اسحاق: فسلك على نقب بني دينار، ثم على فيفاء الخبار فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر يقال لها: ذات الساق فصلى عندها... وصنع له عندها طعام فأكل منه وأكل الناس معه فموضع أثافي البرمة معلوم هنالك واستقي له من ماء به يقال له المشترب، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه سلم فترك الخلاق بيسار وسلك شعبة يقال لها: شعبة عبد الله، وذلك اسمها اليوم ثم صبّ لليسار حتى هبط بليل، فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة، واستقى من بئر الضبوعة ثم سلك الفرش فرش ملل، حتى لقي الطريق بصحيرات اليمام ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة وادعَ فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدا".

- ثم خرج صلى الله عليه وسلم في طلب كرز بن جابر الذي أغار على سرح المدينة فلم يدركه، ومضى حتى بلغ واديا من ناحية بدر يقال له سفوان، وهي غزوة بدر الأولى.

- وأرسل عبد الله بن جحش في رهط وكتب له كتابا يأمره فيه أن ينزل مكانا بين مكة والمدينة يقال له نخلة فيترصد قريشا ليأتيهم بأخبارها، ووقعت بينهم وبين جماعة من القرشيين مناوشة انتهت بمقتل اثنين

من المشركين، وفيهم نزل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ البقرة: ٢١٧.

- وفي أول السنة الثالثة: "غزا نجدا، يريد غطفان، وهي غزوة ذي أمر واستعمل على المدينة عثمان بن عفان... فأقام بنجد صفرا كله أو قريبا من ذلك ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيدا، فلبث بها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلا منه ".

- "ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قريشا، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم... حتى بلغ بحران، معدنا بالحجاز من ناحية الفرع، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ".

- وفي شهر جمادى من السنة الرابعة: "غزا نجدا يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان... فلقي بها جمعا عظيما من غطفان، فتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضا، -حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس".

- وفي شعبان من سنة أربع خرج إلى بدر لميعاد أبي سفيان: "فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سفيان وخرج أبو سفيان من أهل مكة حتى نزل مجنة، من ناحة الظهران، وبعض الناس يقول قد بلغ عسفان، ثم بدا له في الرجوع فقال: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جذب فسماهم أهل مكة جبش السويق، يقولون إنما خرجتم تشربون السويق ".

- وفي شهر ربيع الأول من سنة خمس خرج إلى دومة الجندل "ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يصل إليها، ولم يلق كيدا ".

وكل هذه الغزوات والسرايا لم يقع فيها قتال أو مواجهة حقيقة، وباستقرائها يتبين والله أعلم أن الغرض

منها كان إظهار العزم والاستعداد الدائم للمواجهة لئلا يحس الأعداء من المسلمين ضعفا فيتجرؤوا عليهم، ومن الشواهد الصريحة على ذلك ما جاء في سيرة ابن هشام في خبر بدر الآخرة، قال: وأقام رسول صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أبا سفيان لميعاده فأتاه مخشي بن عمرو الضمري، وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان، فقال: يا محمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال نعم يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك، قال لا والله يا محمد ما لنا بذلك منك حاجة"، فقد أظهر عليه الصلاة والسلام لمخشي بن عمرو استعداده وأصحابه لمواجهته وقتاله مع أنهم متمسكون بعهد الموادعة التي وقعت بينهم وبينه ".

المرحلة الثانية: وامتدت مما يلي غزوة الخندق إلى التاسعة للهجرة، وشهدت تطورا لأسلوب الحماية والدفاع، بحيث لم يعد يترك المجال فيها للمشركين لتجميع أنفسهم لمواجهة المسلمين، وقد عبّر عن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزو الخندق: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا). وقد كان من الخصائص الكبرى للمنهج النبوي في هذه المرحلة:

1- معاقبة المتآمرين على المسلمين ومنعهم من معاودة الكرة، وكان من صور ذلك غزوه صلى الله عليه وسلم لبني قريظة الذين تحالفوا مع الأحزاب في غزوة الخندق، وخرج صلى الله عليه وسلم في جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة إلى بني لحيان يطلب بأحصاب الرجيع: خبيب بن عدي وأصحابه وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة ".

2- القضاء على بؤر التآمر الكبرى وقد سار النبي صلى الله عله وسلم إلى بني المصطلق وهم يجتمعون لقتاله، وكان قد "بلغ رسول الله صلى الله عله وسلم أن بني المصطلق يجمعون له

وقائدهم الحارث بن أبي ضرار جويرية بنت الحارث، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع، من ناحية قدد إلى الساحل فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم..."، ثم أعقب بذلك فتح أكبر حصون اليهود –خيبر–، ثم مكة، ثم مواجهة ثقيف وهوزان في غزوة حنين وكانت الطائف إحدى القريتين العظيمتين مع مكة.

3- توسيع رقعة الحمى الإسلامي ليصل إلى أطراف الجزيرة في مواجهة الروم والفرس وحلفائهم كما حدث في مؤتة ثم تبوك.

المرحلة الثالثة: وكانت بعد السنة التاسعة للهجرة، ويميزها تخليص جزيرة العرب للإسلام، وتطهيرها من المتربصين بالمسلمين، ونزلت سورة براءة تنبذ عهود المشركين فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعليا يؤذنان الناس بها يوم الحج الأكبر (يوم عرفة)، ونودي ألا يحجن بعد العام ولا يطوفن بالبيت عريان، وقد كان ذلك تصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولنبوءات القرآن الكريم، فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكد ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ارتد جميع هؤلاء العرب ووثبوا على المسلمين أو هموا بذلك، ولو أنهم وجدوا ضعفا أو وهنا لما قام للإسلام بعدها قائمة.

ويلاحظ في كل ما سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن حريصا على القتال وسفك الدماء، وأنه ما عرض عليه –عليه الصلاة والسلام– صلح ليس فيه جور إلا أجاب إليه.

وقد ساعد النبي صلى الله عليه وسلم في كفالة قدر من الأمن للأمة في جميع هذه المراحل امتلاكه لجبهة داخلية قوية ومتماسكة اجتمعت حوله صلى الله عليه وسلم وأيدته مهما كانت الأهوال والشدائد، ولقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ

أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال: ٦٣، فكان كل فرد في هذه الأمة مستعدا للدفاع عن المبدأ إلى درجة الاستبشار بالموت في سبيله ومثل هذه الجبهة الداخلية مهمة في تحقيق الأمن الخارجي، ولكن أهميتها في تحقيق الأمن الداخلي أشد.

ثانيا: المنهج النبوي في تحقيق أمن الأمة الداخلي: والمقصود بالأمن الداخلي تحقيق الأمن للأفراد والجماعات الصغيرة داخل المجتمع المسلم، وإننا نلاحظ أن التعامل مع هذه المسألة قد أخذ منحى أبعد من مجرد البعد المادي، بل إنها قد ارتبطت بعقائد الإسلام كما ارتبطت بشرائعه:

فأما في بعده العقدي فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أتباعه وربّاهم على عقيدة تنظر إلى كل ما في الحياة الدنيا على أنه ابتلاء بالخير أو بالشر، وأن لا يصيب العبد إلا ما كتب الله له، وأن الله عزّ وجلّ يطعم العابد له من جوع ويؤمنه من خوف، ويذيق من كفروا أنعمه لباس الجوع والخوف جزاء بما كانوا يصنعون، وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوا عبدا لم ينفعوه إلا بشيء كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه... وأن الله وعد المؤمنين العاملين الصالحات أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنا فيعبدونه ولا يشركون به شيئا.

كما أنه صلى الله عليه وسلم ربطهم بغاية أعظم من الدنيا كلها هي طلب رضوان الله، وجعلهم يتنافسون في ذلك، فهان كل شيء في سبيلها.

ومن جهة أخرى نزل عليهم الوحي أن أحق الناس بالأمن أهل الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ الأنعام: ٨٢.

ومن هذا الباب وحده، قد استطاع

النبي صلى الله عليه وسلم أن يكفل للمؤمنين قدرا من الأمن والطمأنينة بغض النظر عن أي عامل من العوامل الأخرى.

ويرتبط بهذا البعد العقدي أثر عملي وهو التزام الغالبية الساحقة من المسلمين بحدود الله لا يجاوزونها، ولذلك كان مجرد نهي يسمع من شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم كفيلا بالحفاظ على الدماء والأموال والأعراض.

كما كانت الرابطة الإيمانية التي نشأت بين أهل الإسلام حصنا في وجوه الفتن الدالية التي يوقد شرارتها المنافقون في الغالب، ولذلك لم تفلح الفتن في زعزعة الكيان الإسلامي إلا بعد أن دخلت فيه جموع كثيرة من العرب والعجم كان منهم فئة واسعة من المنافقين والحاقدين وعدد غير قليل من المؤلفة قلوبهم بالإضافة إلى جموع كثيرة ممن يصدق عليه قوله سبحانه وتعالى في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ الحجرات: ١٤.

وبعد هذا إن بقي بعض ضعاف النفوس ردهم الخوف من طعن الناس عليهم، فإن تجاوزوا ذلك ردهم الخوف من العقوبة الدنيوية وأن تقام عليهم الحدود الشرعية، وتجدر الإشارة إلى أن مقصد إيقاع الرهبة في نفوس مواقعي الكبائر الحاصل من الحدود مانع لهم من الوقوع فيها كما أن مقصد إيقاع الرهبة في نفوس الكفار الحاصل الجهاد والإعداد له حتى لا يتجرؤوا على المسلمين مانع من وقوع القتال كما تقدم.

فإذا أضيف إلى ذلك عدل مثّل النبي صلى الله عله وسلم أروع صُورِه، وحرص منه صلى الله عليه وسلم على ما فيه خيرهم، وثقل ما يضرهم على نفسه الكريمة، كان في ذلك تطييب لخواطرهم وترضية لنفوسهم ومانع من دفعهم إلى التمرد على الأمة

والثورة عليها أو إعانة عدوها عليها، ولقد حاول قيصر أن يستميل كعب بن مالك بعد أن هجره المسلمون بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يستجب له وهو من خير الشواهد على ذلك.

ملاحظة: للموضوع هوامش.

